قدوة الدارسين

نظر تاريخي للاب فردريك بوفيه اليسوعي (تتمة)

سارت السفينة وباسم الله مجراها فمخرت العُباب ميممةً نحو الجنوب . وكان الركّاب على ظهرها شاخصين الى البرّ ينظرون الى الوطن العزيز نظرة الوداع . وكان في جملتهم افيان . لكنَّهُ هذه المرَّة لم يهمل نفسهُ للحزن والكآبة كالدفعة الاولى بل احسَّ بنفسهِ كأن قيودهُ قد فُكَّت فترنَّم بآية داود: «نجت نفوسنا مثل العصفور من فخّ الصيَّادين الفخُّ انكسر ونحن نجونا» ثم ألقى على الرب مقاليد امرهِ وطلب منهُ ان يصون في قلبهِ تلك الدرَّة النفيسة درَّة ايمانهِ التي باع كتاجر الانجيل كلَّ شيء ليحصل عليها . وضنَّا بهذا الكنز الثمين ها انَّهُ ضحَّى اعزَّ ما كان لديهِ اعني الاهل والاحباب والوطن بل كلَّ رجاء في هذا العالم ليكون عبدًا للمسيح

لسنا نصف ما خطر على بالهِ من الهواجس في سفرتهِ هذه وبقي متردّدًا أيعود الى بيروت فيواصل فيها الدروس الفقهيَّة كما فعل سابقًا او يسير الى فلسطين ليجتمع هناك مع اساقفتها وعلمائها ويخصّ ذاتهُ بخدمة النفوس . ثم تذكَّر مدينة قيصريَّة ومدرستها الدينيَّة الشهيرة التي كان درَّس فيها المعلّم اوريجانس وخرج منها رجال عظام وقدّيسون ابرار منهم غريغوريوس العجائبي . وكان اوريجانس قد توفّي لكنَّ المدرسة لم تسقط بوفاتهِ . وكان حينئذٍ يعلّم فيها كاهن فاضل وعالم بارع يُدعى بمفيل فيتوارد التلامذة اليهِ ليستقوا من بحر معارفهِ الزاخر . فرسخ هذا الفكر في عقل افيان واستملك قلبهُ حتى انهُ صرف فكرهُ عن بيروت تمامًا . ولمَّا رست سفينتهُ عند ساحل تلك المدينة لم يشأ النزول الى البرّ بل اكتفى بتسريح نظرهِ في محاسنها ورؤية جبلها المكلَّل يومئذٍ بتاجٍ من غابات الارز والاشجار الباسقة . ووجَّه خصوصًا بصرهُ الى حيّ من احقر احياء المدينة حيث كانت كنيسة النصارى فشكر الله شكرًا جميلًا على النعمة السابغة التي نالها فيها حيث اصطبغ بمياه المعموديَّة وانتظم في سلك ابناء الله

ثمَّ اقلعت السفينة في الغد ووجهتُها ساحل فينيقية الجنوبيّ فمرَّت على صيداء فصور فعكا فحيفا . وكان افيان اذا ألقت السفينة مرساتها في احدى هذه المدن ينزل ليزور بيعتها ويطلب بركة اسقفها ويسلّم على من يجدهُ من اهل دينهِ . لكنَّ قابسهُ طار

فرحًا لما رأى قيصاريَّة وهي اذ ذاك مدينةٌ عامرة واسعة الارجاء فخيمة المباني يسكنها حاكم رومـاني باسم القياصرة وتتوسط بحكمها مدن فلسطين واليهوديَّة حتى اورشليم حاضرتها الدينيَّة وكانت النصرانيَّة دخلت بين اهلها منذ عهد الحواريين وفيهـا اقام رسـول الامم بولس مدَّةً في الحبس قبل ان يرفع دعواهُ الى القيصر وكان الدين المسيحي منذ ذاك الوقت لم يزل في نموّ وازدهار مع ما لحق بأهلهِ من المحن على ايدي الوثنيين

احسن انكاهن بمفيل تلقّي افيان وما عتم ان ادرك ما في قلب هذا الشاب من الفضل والمروءة فاحبَّهُ حبًّا شديدًا وكان افيان يعتبر معلّمهُ كابيهِ الروحي ويثق بهِ الثقة التامّة ويسرع الى حضور دروسهِ فلا يفوتهُ شيء من فوائدهـا . وكان اذا انتهت ساعات التدريس يصرف نهارهُ في مراجعتها فلا يشغلـهُ عن الدرس شاغل اللهمَّ الَّا الفرائض الدينيَّة من صلاة وحضور الرتب الكنسيَّة واستماع المواعظ والحديث الصالح مع ذوي التُّقى واهل البرّ

فهذه الملازمة للدروس مع ما خُصَّ بـهِ افيان من الذكاء وتوقُّد الفهم جعلت الشاب الليقيّ في مقدّمة الدارسين حتى صار بمفيل يؤمّل من تلميذهِ ان سيخلفهُ يومًا في التعليم . وكان افيان كلفًا بدرس الاسفار المقدَّسـة ولا يكتفي باستماع شروحها من فم بمفيل بل جعل دأبهُ التنقيب والبحث في اعمال آباء الكنيسة وكتبتها وساعدهُ على ذلك ما وجدهُ عند استاذهِ من الكتب النفيسـة التي سعى بجمعها . وكان معلمهُ اوريجانس سبقهُ الى هذا الامر فمشى بمفيل على آثارهِ ووسَّع مكتبـة قيصاريَّة حتى جعلها فريدةً في جنسها وضمَّنها من التآليف الدينيَّة والمصنَّفات الكنسيَّة ما عزَّ وجود مثلهِ في غيرها . فكنت ترى افيان يقضي الأيام والليالي في تصفُّح تلك الآثار الجليلة واستخراج زبدة معانيها وشروحها . هذا فضلًا عمَّا كان يجدهُ في مطالعتها من القوت الروحي ليغذي بـهِ نفسهُ ويزيدها قوَّةً ونشاطًا في خدمتهِ تعالى ويعدَّها ان لزم الامر للموت في سبيل خالقها

والحقّ يقـال انَّ الوثنيَّة في ذلك الوقت كانت اخذت تشهر الحرب العوان على الدين النصرانيّ فحملت عليهِ حملةً كادت تسحقهُ لولا عناية الرب بكنيستهِ وهو القائل انَّ ابواب الجحيم لن تقوى عليهـا . وكان اذ ذاك القيصر ديوقلسيان ضبط زمام الامر

مع قيصرين آخرين غاليريوس ومكسيميانوس فتواطأوا كلهم على دين المسيح لعلمهم يستأصلون شأفته ويمحون رسمه

وكانت الكنيسة في فينيقية وفلسطين ازهر حالًا واعلى شأنًا من ان يغضّ عنها الوثنيون طرفهم. ولذلك قد بلغ عدد الشهداء في تلك الجهات مبلغًا عظيمًا حتى انّ اوسابيوس القيصري ألّف في ذلك تأليفًا خصوصيًا ينبئ بشهامة النصارى الذين بذلوا نفوسهم بسخاء للعذابات والموت دون ايمانهم القويم. وكان لقيصارية في ذلك الميدان السهم الاوفر والنصيب الاوفر وهي مركز الحاكم الروماني يبثّ عليها العيون ويتعقّب آثار من يخالف اوامر الامبراطور

وفي سنة ٣٠٤ ابرز القيصر غاليريوس حكمًا جديدًا في حقّ النصارى في المملكة الرومانيّة فسالت دماؤهم سيولًا ومات منهم الوف مؤلّفة واشتهر بين هؤلاء الابطال شهداء مدينة صور فبلغ خبرهم الى قيصارية وذهب كثيرون من النصارى لمعاينتهم وللاقتداء بثباتهم ولتدوين اعمالهم كما فعل اوسابيوس المذكور آنفًا. ولعلّ افيان رافقه من قيصارية لهذه الغاية وعاين اولئك الشهداء يكابدون العذابات بفرح لا سيّما شابًا كان عمره لا يتجاوز عمر افيان فنزل ببسالة الى ميدان الوحوش الضارية ثمّ أخذ يُصلّي الى الله فسيّبت الضواري شراستها وجعلت تتلقّفه دون ان تمسّ شعرة من رأسه فلم يبقَ للحاكم الّا ان يأمر السيّاف بقطع رأس الشهيد

فهذا المثل شدّد عزائم افيان حتى انه صار يلتمس من الربّ ان يُهرق دمه في سبيل الايمان كما حصل لشهداء صور واخذ يزيد صلاحًا وبرًا ليستحقّ تلك النعمة ويفوز مثل اخوته باكليل الظفر. فما مرّت برهة من الدهر على اوامر غاليريوس حتى رأى رصيفه في الملك «مكسيميانوس دايا» ان يبرز حكمًا اشدّ من حكمه رجاء ان يقهر تبعة المسيح على عبادة الاوثان فاثار اضطهادًا انسى اضطهاد اسلافه

وكان يحكم اذ ذاك على فلسطين رجلٌ اسمه اوربانوس وهو فظّ الاخلاق جافي الطباع خالٍ من كلّ رحمة فارسل يومًا الشُرَط الى كلّ احياء قيصارية حيث كان يعلم بوجود النصارى وامرهم ان يسوقوا المسيحيين الى خارج المدينة افواجًا افواجًا. وكان هناك ساحة واسعة اقام فيها اوربانوس شبه مذبح يعاره احد اصنام الرومان. فلمّا اتوا اليه بالمسيحيين تقدّم اليهم بان يُحدقوا بالمذبح ويشاركوه في تقدمة الذبيحة

للطاغوت وامر الجند بان يشهروا سيوفهم ويقبضوا على كلّ من يأبى موافقتهُ على اكرام الصنم

فاستولى الخوف على المسيحيين وطارت قلوبهم شعاعاً وبقوا في الحيرة لا يدرون كيف يتأتّون من مخالب المتعصب ويحافظوا على ايمان المسيح . فبينما كانوا على هذه الحالة واوربانوس يعدُّ نفسهُ للذبيحة ولتقدمة أكباب الخمر لاصنامهِ اذ خرج من الجمع شابٌ في مقتبل العمر فتقدَّم بكل بسالة وثبات جنان ثم صعد الى المذبح غير هيّاب فتوجّهت اليهِ كلّ الالحاظ وكان الجميع يتساءلون من هو يا ترى هذا الفتى الذي لم يعرفهُ اهل قيصاريّة

انّا هذا افيان الليقي وتلميذ العلّامة بمفيل . فانهُ كان منكبًّا على دروسهِ في خزانة كتب استاذهِ اذ سمع ضوضاء الجند وجلبة القوم فسأل ما الامر فقيل لهُ انّ اوربانوس الحاكم امر بان يُقاد النصارى الى هيكل الاصنام ليجحدوا بدينهم فاخذت الحميّة افيان ولم يتمالك من ضبط نفسهِ في عزلتهِ وكان يمكنهُ ان يبقى متخفّيًا آمنًا اذ لم يعلم بهِ في قيصاريّة سوى بعض الافراد لكنّ روح الله استفزّهُ فخرج مسرعًا الى باب المدينة حيث اجتمع المسيحيّون وعُرض عليهم جحود الاله الحقّ

وهو الذي رأيناهُ يخرق الصفوف ويرقى درجات المذبح فما كان منهُ الّا كلمح البرق حتى قبض على ذراعي اوربانوس فكبَّ القدح المعدّ لاكرام الصنم ثمّ ضرب الهيكل فخربهُ . امّا اوربانوس فاذ رأى هذا العمل امتُعِض لونهُ واصابهُ شبه الجنون وحاول ان يقبض على الشاب ويصدَّهُ عن فعلهِ فلم يستطع . فدعا الجند لمساعدتهِ فاتوهُ من كل صوب امّا افيان فاستقبلهم رابط الجأش وسلّم نفسهُ الى ايديهم بلا خوف ثمّ التفت الى اوربانوس واخذ يقرّعهُ امام الحضور على فعلهِ بالنصارى اذ يضطرهم على نكران الاله الحقّ ويحملهم على عبادة اوثان لا حياة فيها بل على اكرام ابالسة اشرار وطواغيت مرّدة لا يريدون الّا الفتك بالبشر والقاءهم في دركات الجحيم . وكان الحضور من النصارى يسمعون كلام افيان فاهتزّوا لهُ طربًا وانتعشت في قلوبهم حميّة الدين واعلنوا بانهم تبعة السيّد المسيح

فلمّا رأى اوربانوس ما صنع افيان تنمّر غيظًا واراد ان يفرغ عليهِ كلّ سجال غضبهِ لكي يلقي الرعب في قلوب بقيّة المسيحيين . وعليهِ امر الجند بان يمدّدوهُ على

الحضيض ثمَّ يطأُوهُ بالاقدام. فتقبَّل رجل الله هذه الاهانات بتبسم وفرح زادا الطاغي حنقاً وبغضاً فامر انْ تمزَّق شفاه الشهيد ويُفضَّ فوهُ الذي اعترف باسم المسيح

وما كانت هذه العذابات لتشفي غليل اوربانوس فانهُ اخذ يفكر في اشدّ التنكيلات ليمثل بافيان ويغلب ما كان يدعوهُ بالعناد. فارسل الى خدمهِ ان انقلوا الشابّ الى الحبس واجعلوهُ على آلة التنكيل وصادروهُ الى ان تتفكك كلّ مفاصلهِ فقضى افيان تلك الليلة يكابد مضضاً امرَّ من الموت لكنهُ ما عيل صبره فكان بين الاوجاع يشكر الله الذي جعلهُ اهلاً بان يقاسي الآلام حبّاً باسمهِ وكان يردّد قولهُ انهُ مستعدٌّ لأن يموت الف ميتةٍ لاجل ايمانهِ

وفي غد ذلك اليوم امكن بعض النصارى ان يدخلوا الحبس ليعودوا الشهيد ويطلبوا دعاءهُ عند الله. وكان في جملتهم الكاهن بمفيل الذي تأثَّر اي تأثير لمَّا بلغهُ ما فعلهُ تلميذهُ لدى الحاكم وشكر الله الذي ألهم هذا الحدث في عنفوان شبابهِ قوَّة الهية ليشدّد بمثلهِ قلوب النصارى. ولما رآهُ في الحبس وجسمهُ ممزوّ بالآلام وهو مع ذلك عظيم النفس شديد القلب اطرح عند اقدامهِ واخذ يقبّل جروحاتهِ ويطوّبهُ على سعادتهِ ويتمنَّى لو كانت تحلّ بهِ هذه العذابات ليصير هو ايضاً شهيداً للايمان. فما كان الله ليرفض هذه النعمة على عبدهِ ليجمع بين المعلم والتلميذ في شرف الشهادة لكنَّ ساعة بمفيل لم تدقّ بعد ولذلك افرغ جهدهُ في ان يزيد تلميذهُ صبراً على آلام هذه الحياة الزائلة ويذكّرهُ بالمجد الذي ينتظرهُ في السماء. ولا نشكّ انهُ زوَّدهُ بخبز الاقوياء وقاتهُ بمنّ الملائكة وان كان اوسابيوس لم يصرّح بالامر في سيرة افيان. الَّا انَّ ما اظهرهُ الشابّ الباسل من الهمَّة والشجاعة بازاء المغتصب لدليل لامع على انَّ جسد المسيح ودمهُ كانا قلّداهُ قوَّة سموَّية لا تقوى عليها كلّ عذابات الدنيا

.. ففي مساء اليوم التالي جاء الحرس واخرجوا افيان من حبسهِ ليمثل امام اوربانوس ويستنطقهُ قبل ان يبرز فيهِ حكم الموت فسألهُ عن اسمهِ وعن اهلهِ وعن بلدهِ وعن اشغالهِ فكان افيان لا يجيب الى كلّ سؤال يلقيهِ اليهِ الحاكم الَّا بكلمة واحدة لا يعرف غيرها «اني مسيحيٌّ». فاستشاط اوربانوس غيظاً وامر الجلَّادين باستئناف العذاب فمدَّدوا جسمهُ ثانية وجدَّدوا الاوجاع السابقة بقساوة عظيمة ثم مزَّقوا جسمهُ بأمشاط الحديد بحيث لم يبقوا في جسدهِ عضواً سليماً حتى ظهرت للعيان احشاء

الشهيد وبدت عظامهُ وهو لا يتأوّه ولا يتشكّى في وسط هذا النكال الغريب. بل كان نظرهُ لا يزال شاخصاً الى الحاكم كأنهُ يتهدّدهُ بيوم الدين فرأى اوربانوس في هذا النظر شتماً لمنصبهِ فامر بان يُضرب وجههُ بالمقارع الى ان صار كلهُ دامياً مشوّهاً حتى لم يَعُدْ يعرفهُ اصحابهُ الّا من صوتهِ وهو يكرّر دائماً قولهُ «انا مسيحيّ»

فعند ذلك سوّل الشيطان لاوربانوس ان يجدّد في هذا الشابّ العذابات التي اخترعها نيرون لتنكيل النصارى الاوّلين. فامر بان يُعلّق افيان بذراعيهِ ثمّ لفّف رجليهِ بلفائف مغموسة في الزيت واوقد فيها النار فكنت ترى اللحم يحترق والشحم يذوب وافيان لا يبدي حراكاً كانهُ جماد لم يشعر بالم. وكان الوثنيون في اثناء ذلك يلحّون عليهِ بان ينجي نفسهُ من النار ويدين بآلهة الرومان فسكت الشهيد عنهم طويلاً لا يكترث لاقوالهم الى ان سئم من الحاحهم فقال: «لا تضيعوا الوقت في تجربتي اني لا اعرف الهاً غير المسيح ابن الله الحيّ»

فعلم اوربانوس انّ عذاباتهِ لا تثني عزم الشهيد وانهُ هو المغلوب فامر بان يُقاد الى السجن ثانيةً ويمتحن بمحن جديدة لم تزدهُ الّا ثباتاً في خدمة إلههِ وبعد ثلاثة ايّام عُقد مجلس حافل حضرهُ افيان المسيح محمولاً على الواح فعُرض عليهِ لآخر مرّة ان يجحد دينهُ فأبى ونبذ علانيةً خلال الوثنيّة. فقام حينئذٍ اوربانوس وحكم عليهِ بالموت غرقاً وانما اختار ذلك لئلّا يحظى النصارى بجثّة الشهيد فيكرموهُ كما ألوف عادتهم ولعلّهُ ايضاً كان يظنُّ بان هذا الموت ينتزع من قلب افيان رجاء القيامة وبئس ما ظنّ لأنهُ لا يصعب على الله ان يبعث الاجساد بعد انحلالها وفنائها وهو الذي خلقها من العدم

فألقي الشاب البارّ في قاربٍ جذف بهِ بحرّيان وابتعدا عن الساحل فلمّا بلغا الغمر ربطا رجليهِ بحجرين ثقيلين ورميا بهِ في قاع البحر. وهو الموت الذي تُقضي بهِ في صور نحو هذا الزمن على شاب مسيحيّ آخر اسمهُ اوليان فانتقلت نفسها الصالحة الى مقرّ الابرار

وكان اهل قيصارية قائمين على سيف البحر ينظرون الى القارب وما يجري بالشاب افيان. فبعد ان دُفن جسدهُ في عُباب اليمّ عاد القارب الى البرّ وما كاد يبلغهُ حتى شعر الناس بزلزال فاهتزّت الارض واضطرب البحر وسُمعت اصوات باطنيّة ارتعدت لها فرائص القوم فرقاً. واذا بجسم الشهيد قد ارتفع على ثبج البحر والامواج تتهاداهُ

بلين. فاندهش الناس لهذا المرأى اي اندهاش وعرف المسيحيُّون منهم ان هذه آية من الله ليزيدهم ثباتاً في ايمانهم

وبعد ساعة دفعت الامواج الجثة المقدسة الى البرّ واذا بالشهيد كانهُ راقدٌ تلوح على محيَّاه سمة المجد الذي اصابتهُ نفسهُ في السماء. فازدحمت حولهُ الجموع وخرج اهل المدينة كلها حتى الاطفال والعذارى المحصَّنات لنظر هذه المعجزة فيمجِّدون الله ايان ويُطرنون تحمُّسهُ في سبيل دينهِ. امَّا النصارى فكانوا في مقدمة الجميع يشكرون الله على تمجيدهِ لشهيدهِ ويتذامرون للدفاع عن دينهم ومقاساة كلّ العذابات في سبيل الآخرة ثمَّ اخذوا جسد الميت فسجَّوهُ بالانسجة الثمينة ونقلوهُ باكرام الى كنيستهم دون ان يجسر احد ان يتعرَّض لهم في فعلهم

ومذ ذاك الحين اضحى اسم الشهيد ايان معظَّماً في قيصريَّة وفي جوارها لا سيَّما بعد ان حرَّر اوسابيوس القيصري ترجمة حياة وليّ الله وكان هو ممَّن شاهدوا اعمالهُ العجيبة وموتهُ الصالح. وكان المؤمنون يقيمون لهُ كلّ سنة عيداً حافلاً جعلهُ السنكسار الروماني في ثاني يوم من نيسان لكنَّ وفاتهُ وقعت في يوم الجمعة خامس يوم بعثهُ كما لمَّح الى الامر اوسابيوس وذلك سنة ٣٠٦

هنا تنتهي ترجمة ايان قدوة الدارسين دون ان يزيدنا كاتبها افادةً وانَّما نعلم انَّ مثل الشهيد حاك في قلوب كثيرين من الاحداث فساروا الى المنتصب طالبين تضحية حياتهم لاجل دينهم وكان اداسيوس اخو الشهيد من جملتهم ومن ذلك يظهر انهُ تبع اخاهُ ايان الى القيصريَّة وهاجر وطنهُ على مثالهِ فمات كمثلهِ ميتة الصالحين وآخاهُ في المجد كما آخاهُ في حياة الجسد

هذه خلاصة اعمال شابٍّ همام بل قديس عظيم احببنا ان ندوِّنها على صفحات المشرق في افتتاح السنة المدرسيَّة لنغري ذكرهُ بين طلبة المدارس لا سيَّما في بيروت فتتخذهُ الشبيبة كمثال لها في السيرة الصالحة فضلاً عن النشاط في الدروس وتلقُّن العلوم. ويا ليت احد الاثريين يكتشف يوماً قبرهُ في خرابات قيصريَّة فيغني الكنيسة بذخائرهِ وعلى كلّ حال يمكن وصفاءهُ الاحداث ان يطبعوا في قلوبهم فضائلهُ فيرسمونها في قلوبهم ويجارونهُ في الصلاح وحبّ التُّقى ونبذ الملذَّات العالمية فيشرِّفوا الكنيسة انَّهم في هذه الحياة قبل ان ينظمهم المسيح في موكب الحمل في جنان الخلد